﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الرُّوم: 33 - 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِنَ التَّحذيرِ مِنَ الشِّرك إلى بيان اضطراب حال المشركين

لمّا بَيَّن اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقة دينَ التَّوحيد الواجبِ اعتقادُه، وهو دين الفطرة التي فطر النّاسَ جميعًا عليها، وأمر بالعمل بما جاء به إنابةً والْتِجاءً واتِّقاءً، وحذَّر مِنَ الشِّرك المُؤدّي إلى التَّحزُّب والتَّعصُّبِ والفرح بالأعمال الباطلةِ؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان حال النّاس عند إصابتهم بالضَّرّاءِ والبلاء، مِنَ الالتجاء إلى اللّه الواحد الأحد، فإذا ما رفع عنهم ضُرَّهم وبلاءَهم؛ إذا فريقٌ منهم يشرك باللّه تعالى، فيكفرون بنِعَم اللّهِ؛ ليَتمتَّعوا بها وقتًا قليلًا، فانتقلت الآياتُ من بيان الدّين الحقِّ وموقف النّاس منه قبل البلاء، إلى بيانِ واقعِ النّاس عند وقوع البلاء؛ لبيان اضطرابهم وقلقهم في المعتقد والسُّلوك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: (مسّ) أصلٌ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[1]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أمَسُّه مَسًّا، لَمَسْتُهُ بيَدِكَ، وهُوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلُولِهِ، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قال تعالى: ﴿*وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزّمر: 8]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصّلت: 51]، وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: 73][2]، والمَسوسُ مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسّ).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.

المياه: ما نالته الأيدي[1]، وحاجةٌ ماسَّة، أي: مُهِمَّة[2]، وحقيقةُ المَسِّ في الآية مُسْتَعْمَلٌ في الإصابَةِ على وجْهِ المجازِ[3].

2) ﴿مُّنِيبِينَ﴾: (نوب) أصلٌ يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورُجُوعٍ إليه[4]، نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسُمّي النَّحلُ نَوْبًا لرجوعها إلى مقارِّها، والإنابةُ إلى الله تعالى: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العَمَل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][5]، والمُنيبُ: مَنْ أنابَ؛ إذا رَجَعَ[6]، والمقصودُ بالإنابة في الآية: الرُّجوعُ إلى الله والتَّوبةُ إليه، أي: راجعينَ إلى ما أمرَ بِهِ، غيرَ خارِجينَ عَن شَيْءٍ مِن أمره[7].

3) ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: (متع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ[8]، والمَتْع: بُلُوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتِعُ مَتْعًا، أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[9]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالغ الجودة[10]، والمُتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[11]، تَقُولُ: تَمَتَّعْتُ بِكذا، واسْتَمتعتُ به؛ إذا انتفَعتَ به، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلُّ شيءٍ يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّد، ويأتي عليه الفَناءُ في الدُّنيا، والجَمْعُ أمتعةٌ[12]، والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانتفاعُ القَصيرُ زمنُه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيتان أحوالَ النّاسِ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ؛ فإذا أصاب النّاسَ ضُرٌّ، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم، أو قَحطٍ وشِدَّةٍ في مَعيشتِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ للهِ مُقبِلينَ عليه وحْدَه، تائِبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لِعِلْمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُّرَّ إلّا اللهُ، ثمَّ إذا رَحِمَهم، فكَشَفَ ما

(1) الخليل، العين: (مس).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نوب).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نوب).
(7) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 185، والزّبيديّ، تاج العروس: (نوب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(9) الرّاغب، المفردات: (متع).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (متع).
(11) الأصبهانيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/ 148.
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأصابَهم بنِعمةٍ منه، كعافيةٍ أو سَعةِ رزقٍ وغيرِ ذلك؛ إذا جماعةٌ منهم يُبادِرونَ بنَقضِ تلك الإنابةِ الصّادرةِ منهم، فيُشرِكونَ معه غَيرَه في عبادتِه، ولا يَشكُرونَه على نِعَمِه[1]؛ ليكفروا بما آتاهمُ اللّه مِنَ النِّعم، وليتمتعوا مُدَّةَ حياتِهم بما أعطاهم اللّهُ سبحانه، فسوفَ يَعلَمونَ ما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ[2].

واقـع المشركين مضطربٌ فعند الأمـن شـركٌ وعـنـد الـضُّـرِّ إيمانٌ والتجاء

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾؛ لعطف الجملةِ على جملة: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ [الروم: 32]، أي: فرَّقوا دينَهم، وكانوا شيَعًا، وإذا مَسَّهم ضُرٌّ، فدعَوا اللّهَ وحدَه، فرحمهم؛ عادوا إلى شِركهم وكُفرهم نعمةَ الذي رحمهم، فالمقصود منَ الجُملة هو قوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، فمَحلُّ انتظامِ الكلام في مذامِّ المُشركين أنَّهم يرجعون إلى الكفر، بخلاف حال المؤمنين، فإنَّهم إذا أذاقهمُ اللّهُ رحمةً بعد ضُرٍّ؛ شكروا نعمة ربِّهم، وذلك من إنابتهم إلى اللّه[3].

انتظامُ الكلام في مـذامِّ المُشركين لـتـصـويـر طـبـائـعـهـم المُتقلِّبة

دلالة استعمالِ (إذا) دون (إنْ):

(إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ شرطيَّة، أي: هُم بمُجرَّد نزول الضُّرِّ بهم يلجؤون إلى اللّه تعالى؛ ليُزيلَه عنهم، ثُمَّ إذا ما كشفه عنهم، وأحاطهم برحمته؛ أسرع فريقٌ منهم إلى عبادة غيره سُبحانه[4]، وأتى بأداة (إذا) دون (إن)؛ لبيان تحقُّقِ ذلك في فريقٍ منهم - لا محالةَ - وفائدته: تحذيرُ العقلاء،

لا يُـعـرفُ أهـلُ الـبـاطـلِ على الـتَّـحـقـيـق إلّا بالنِّعم بعد رفعِ البلاءِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 499، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 33، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 641.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 499، 500، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 53.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.

(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.

وتنبيهُ الصّالحين أن يكونوا من ذلك الفريق، وفيه كذلك توطينُ المؤمنين على توقُّعِ الباطلِ من أهلِه، والنّاس لا يُعرفون على الحقيقةِ إلّا بنزول النِّعم بعد رفع الضُّرِّ.

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿مَسَّ﴾:

قليلُ الضُّرِّ وعظيمُهُ سواءٌ في موقفِ المشركين

لفظُ المَسِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ مُستعارٌ للإصابة، وحقيقة المَسِّ: أنَّه وضع اليد على شيء ليُعرفَ وجودُه، أو يختبرَ حالُهُ، فشَبَّه إصابةَ الضُّرِّ والبلاءِ بمَسِّ الشَّيء وجَسِّه، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهي مستعملةٌ في الإصابة بجامع الاتِّصال، أي: إذا أصابهم ضُرٌّ؛ التجؤوا إلى اللّه تعالى، والاستعارة أبلغُ منَ الحقيقةِ؛ لأنَّ المقصود بيانُ أنَّ أدنى ضُرٍّ يُصيب المشركين، فهم في حالةِ التجاءٍ وانتحاب، وهو ما يُعبِّر عنه لفظُ المَسِّ، ولوقال: (وإذا أصاب النّاس)؛ لانصرفَ الذِّهنُ إلى الإصابة العظيمة الكبيرة، فمن هاهنا كان استعمال لفظِ المسِّ أبلغَ؛ لدلالته على قليل الضُّرِّ صراحةً، وكثيره التزامًا.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

الاستغراقُ لذمِّ الجاحدين صراحةً ومدحِ المؤمنين إدماجًا

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ يُراد به مُطلقُ النّاس، فهو للاستغراق[1]، فإنَّ من شأن الإنسان من حيثُ هو إنسان، إذا أذاقه اللّهُ من رحمته، وأفاض عليه من نِعَمِه؛ فرحَ، ورضيَ، وإن أصابه سُوءٌ؛ تكرَّه، وساء ظنُّه، وطاف به طائفُ اليأس والقُنوطِ[2]، وجاء النَّظم الكريم بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ لما فيه مِنَ العموم، وإدماجًا لفضيلة المؤمنين الذين لا يكفرون نِعمةَ الرَّحيم[3]؛ لأنَّ ذِكر حال الكافرين وشِرْكِهم يستثني أهلَ الإيمان من هذه الحال.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 522.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.

توجيهُ المُتشابِه اللّفظيّ:

جنسُ الإنسان يغلب عليه الجحود والنّاس استغراقٌ بقصدِ التّقسيم

جاء استعمالُ كلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في سياق مسِّ الضُّرِّ في القرآن الكريم في آيةٍ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، بينما بقيَّة المواضع فجاء فيها استعمال كلمةِ (الإنسان)، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12]، وقولُه تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزّمر: 8]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزّمر: 49]؛ وذلك أنَّ آية الرّوم قُصِد بها الحديثُ عن عموم أصناف النّاس المؤمنين والمشركين، فهي للاستغراق، فصحَّ انقسامُ النّاس إلى فريقين: مشركٍ ومؤمنٍ، بينما آية يونس وآيتا الزّمر؛ فالمقصودُ بها جنسُ الإنسان، والغالب على هذا الجنس هو الكفران والجحود، فجاء بالجنس بقصد التّغليب، وجاء بالاستغراق بقصد التّفريق، فآثرَ النَّظمُ استعمالَ كلِّ كلمةٍ في السّياق الأنسبِ بها.

نُكْتَةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دونَ إضماره:

جميعُ الكائنات إذا تحرَّكت؛ فإنَّما تتحرَّك ملتجئةً إلى خالقِها

يرى البقاعيُّ رحمه الله أنَّ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ هو من باب إظهار ما حقُّه الإضمار، فالأصل عنده أن يُقال: (يمسهم)، ولكنَّه أظهرَ؛ لأنَّه أنسبُ بمقصود السّورة في قصر ذلك على الإنسان، كما هي العادة في أكثر السّور، فلمّا خالف الأصلَ بإظهار ما حقُّه الإضمارا، كان من وراء ذلك نُكْتَةٌ، وهي مناسبة مقصود السّورة، أو ليدخلَ في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ غيرُ ذلك من أنواع العالم؛ تقويةً لإرادة العموم، وإشارةً إلى كلِّ من فيه أهليَّة النَّوس، وهو التَّحرُّك منَ الحيوانات العجماوات والجمادات، فلو نطقت، ثمَّ اضطربت؛ لتوجَّهت إليه سبحانه، ولم تعدِل عنه، كما أنَّها الآن كذلك بألسنة أحوالها[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 91، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿ضُرٌّ﴾، وفائدةُ تنكيرها:

التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى لبيانِ شديدِ فرطِ جَزَعِ النّاس

جاء استعمالُ مفردة الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾، وهو سُوءُ الحال في البدن أو العيش أو المال[1]، دون مرادفات هذه اللَّفظة من مثل: البلاء والفتنة والسّوء؛ لأنَّها أقلُّ ما يُتصوَّر في إلحاق أذًى بالنّاس، مع مناسبته للفظِ ﴿مَسَّ﴾، ومجيئُه نكرةً في سياق الشَّرطِ؛ ليَعُمَّ كلَّ أنواعِ الضُّرِّ، ونُكْتَةُ ذلك: بيانُ أنَّ النّاس يضجرون، ويتحرَّكون، ويرتعدون بأقلِّ ضُرٍّ يمسُّهم، فنبَّهَ بالأدنى على الأعلى، فإذا كان هذا حالُهم مع أقلِّ ضُرٍّ؛ فكيف إذا وقع البلاءُ، ونزلت المصائب؟ وهو ما يُبيِّن شديدَ ضعفِهم، وفَرْطَ جَزَعِهم.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ الدُّعاء:

الدُّعاءُ كاشفٌ عن حقيقةِ معرفةِ المشركين للمُستحقِّ للعبادةِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الدُّعاء، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ هؤلاء المُشركين إذا مسَّهم ضُرٌّ؛ استغاثوا باللّه في كشفِ ما نزل بهم، مُقبلين بالدُّعاء عليه وحدَه دونَ الأصنام؛ لعلمِهم أنَّه لا فرج عندها[2]، وهو ما يكشفُ علمَهم بحقيقةِ من عنده القدرةُ على رفع الضُّرِّ، ففي تلك الحال يعود الإنسانُ إلى فطرته، وإذا هو قد فَزِع إلى اللّه تعالى، ولاذ به من وجه هذا البلاء المُطِلِّ عليه[3]، فالدُّعاء دليلُ المعرفة بالمُستحقِّ للتَّوحيد والعبادة.

عِلَّةُ استعمالِ عنوان الرُّبوبيَّة:

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ عنوانِ الرُّبوبيَّة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ التجاءٍ إلى رافع الضُّرِّ، وهو الأنسب بالرُّبوبيَّة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(2) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 12/ 34.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 518.

معنى الإضافة وفائدتُها:

كفرانُ الإحسانِ يستوجب التَّقريعَ ويستنزل التَّوبيخَ

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّميرِ في لفظِ ﴿رَبَّهُم﴾، والإضافة بمعنى الاختصاصِ؛ إشارةً إلى فداحة الظُّلْمِ الذي رَكِبَهُ هؤلاء المُشركون، فجحدوا نعمةَ ربِّهم، الذي استجاب لهم، ودفع البلاء عنهم[1]، والذي لم يُشاركه في الإحسان إليهم أحدٌ في جميع مُدَّة مَسِّهم بذلك الضُّرِّ[2]، فهو ربُّهم المستحقُّ للعبادةِ الحقَّة، وهو ما يزيد من تقريعهم وتوبيخهم عند شركهم وكفرهم.

فائدةُ استعمالِ مفردة الإنابة:

تحقيقُ غرضين الاحتجاجُ على المشركين وعِظةُ المؤمنين وتَنبيهُهم

جاء استعمال مفردة الإنابة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، دون الرُّجوع؛ وذلك لتشملَ معاني متنوِّعة من مثل: التَّوحيد والطّاعة، مع أنَّ أصل الإنابة الرُّجوعُ، لكنَّها اختصَّت هنا بقيد الرُّجوعِ إلى الخير دون مطلق الرُّجوع، أي: راجعين إليه عمّا كانوا فيه منَ الشِّرك، فالإنابة هي التَّوحيد، وإن كان عنِ العصيان؛ فالإنابة هي الطّاعة، ففيه احتجاجٌ على المشركين، في تركهم التَّوحيد وإقبالِهم على الشِّرك، وتنبيهٌ وعِظةٌ للمؤمنين، أن يكونوا في الأحوال كلِّها على حال واحد في حال الرَّخاء والشِّدَّة، ذاكرين له شاكرين؛ لأنَّهم في حال الشِّدَّة والبلايا أكثرُ ذِكْرًا له وإنابةً من حال السَّعة والرَّخاء، فيُنبِّهُهم ليكونوا في كُلِّ حالٍ ذاكرين له مُنيبين إليه راجعين[3].

فائدةُ تقييد الإنابة:

الإنابةُ الحقَّةُ في الشَّدائد لا تكون إلّا لصاحبِ الإنابة الحقَّة

جاء لفظ: ﴿مُّنِيبِينَ﴾ مقيَّدًا بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾، أي: لا يرجعون التجاءً في شدائدهم إلى مَنْ عبدوه مع اللّه ﷻ، بل يرجعون في دعائهم إليه وحده[4]، علمًا منهم بأنَّه لا فرج لهم

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 520.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 275.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 60.

عند شيء غيرِه، وهذا دَيْدَن الكُلِّ، لا يخرم عنه أحدٌ منهم في أزمة منَ الأزمات، وهذا دليلٌ على أنَّ معرفة الرَّبِّ في فطرة كلِّ إنسان، وأنَّهم إن غَفَلوا في السَّرّاء؛ فلا شكَّ أنَّهم يلوذون إليه في حالِ الضَّرّاء[1].

نُكْتَةُ استعمالِ حرف التَّراخي:

أقبحُ الشِّركِ ما كان بعد رفع الضُّرِّ وتحقيقِ الرَّحمة

نوعُ التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ هو الرُّتبيُّ، واستُعمِلَ لأجل أنَّ الواقعَ في شِدَّةٍ مستبعدٌ كُلَّ استبعادٍ الخلاصَ منها، فلهذا عبَّر بأداة البُعْدِ[2]، ولأنَّ إشراكهم بالله بعد الدُّعاء والإنابة وحصولِ رحمتِه أعجبُ من إشراكهم السّابق، ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنى التَّعجيب من تجدُّد إشراكهم[3]، فهي توطئةٌ لما سيقع منَ المشركين بعد رفعِ الضُّرِّ، من تجديد الشِّرك بعد ذوقهم الرَّحمة من بعد الضُّرِّ، وهذا من أشنع ما وقع منهم.

فائدةُ استعمالِ أداة ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطيَّة:

الانتكاسةُ بعد ذوق الرَّحمة المتحقِّقة دليلُ شُؤمٍ ونداءُ بُؤس

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ أداة ﴿إِذَآ﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾؛ لبيان تحقُّقِ إذاقة الرَّحمة للعبادِ في كُلِّ الأحوال، وخصوصًا عند رجوعهم لربِّهم ولجوئهم إليه، مع ما فيها منَ التَّهيئة للتَّشنيعِ على الفريقِ الذي سارع إلى الإشراك والانتكاسة بعد ذوق الرَّحمة المتحقِّقة، ولو قال: (إن)؛ لما أفاد هذا البيان.

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

تحقُّقُ إذاقةِ الرَّحمة لجميع من يلتجئ إليه تعالى

جاء التَّعبير بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَذَاقَهُم﴾؛ لبيانِ أنَّ إذاقةَ الرَّحمةِ قد تحقَّق في حقِّ النّاس جميعًا بعد التجائهم إليه، ففيه بيانُ سُوءِ مقابلتِهمُ الإحسانَ بالإساءة.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الإذاقة:

بدايةُ الإنعامِ على الجاحد كشفٌ عن سُوءِ معدنهِ وخِسَّةِ باطنهِ

استُعمِلت مفردة الإذاقة في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ دون أن يُقال: (أنزل عليهم رحمةً منه)، لما فيها من تصوير معنى إدراك الرَّحمة، فالإذاقةُ في الأصل إصابةُ المطعوم بطرف اللِّسان لإدراك الطَّعام واختباره، وهي أضعف إصابات الأعضاء للأجسام، فهي أقلُّ منَ المضغ والبَلع، ثمَّ استُعيرت للإصابة بالرَّحمة والإحساس بها، حيثُ شُبِّهَ ذلك الإحساسُ بذوقِ الطَّعْم بجامع سُرعة اتِّصال الإحساس بالإدراك، وسُرعةِ زواله، كما تزولُ الطُّعومُ، فالمُشَبَّهُ: هو إصابة المشركين بالرَّحمة، والمُشبَّهُ به: هو الإذاقةُ باللِّسان، ووجهُ الشَّبَهِ: هو سُرعة الإحساس بالشَّيء القليل واختبارُه، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ لحذفِ المشبَّهَ والتَّصريحِ بالمشَبَّهِ به، وفي الاستعارة إشارةٌ إلى إسراعهم بكفرهم بالمُنعِم عليهم، فمِن بداية مُخالطتهم للنِّعمة وذَوقها كفروا بمُذيقهم إيّاها؛ إذِ الذَّوقُ هو أوَّل المُخالطة، فاختير التَّعبيرُ بالإذاقة؛ لِما يَدُلُّ عليه من إسراعهم إلى الإشراك عند ابتداء إصابة الرَّحمة لهم[1].

نوعُ (من) وفائدتُها:

ابتداءُ الأمرِ كلِّهِ من صاحبِ الأمر كلِّهِ

حرف (من) في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ دالٌّ على الابتداءِ، ففيه دلالةٌ على اختصاصِ الأمر ابتداءً منه تعالى؛ فرحمة النّاس بكشف الضُّرِّ عنهم من فعل الله تعالى وحده، ولمّا كان السّياق كُلُّه للتَّوحيد؛ كانتِ العنايةُ باستحضار المعبود والإشارة إليه بضميره أتَمَّ، وإسناد الرَّحمة إليه تعظيمًا للأدب[2].

غرضُ تقديمِ ﴿مِّنْهُ﴾ على المفعول به:

الرَّحمةُ بالله خاصَّة ونزولُها منه خاصَّة

تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.

﴿رَحْمَةً﴾: للاختصاص، وأنَّ ذلك لا يقدر عليه غيرُه سبحانه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لو أخذهم بذنوبهم؛ أهلكهم، فلا سببَ لإنعامه سوى كرمه[1]، وللاهتمام به؛ ليَظْهَرَ أنَّ الَّذي أصابَهم هو مِن فضل الله وتقديرِه لا غير ذلك[2].

غرضُ تنكير لفظِ ﴿رَحْمَةً﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿رَحْمَةً﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا النَّوع من النّاس، يبطُرون، ويَطْغَون لأدنى رحمة ونعمة[3]، فالرَّحمة عامَّة في كلِّ ما يُوصَف بها، وهي نكرة في سياق الشَّرط.

الدّلالةُ على العموم فهم يبطُرون ويَطْغَون لأدنى رحمة تُصيبهم

نوعُ المجازِ وبلاغتُه:

لفظُ ﴿رَحْمَةً﴾ مجازٌ مُرسلٌ، حيثُ ذُكرت الرَّحمةُ، وهي السَّبب، وأُريد بها كلُّ ما يَرحَم النّاسَ مِنَ السَّعة والرَّخاء والصِّحَّة والعافية والمَطر، وهي المُسبَّب، فهذا مجازٌ مُرسل علاقتُه السببيَّةُ.

الرَّحمةُ مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ السببيَّة لإرادةِ العموم

بلاغةُ استعمال أداة المُفاجأة: ﴿إِذَا﴾:

حرف المُفاجأة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ جيء به لبيانِ حال هذا الفريق الغريب العجيب، الذي يعبِّر عن حالةِ خلافِ المتوقَّع من عمل البشر، ولا يقع معه ظنُّ العقلاء، فإنَّهم أسرعوا العودةَ إلى الشِّرك بجُدْثان ذوقِ الرَّحمة؛ لتأصُّل الكفرِ منهم وكمونِه في نفوسهم[4]، ففيه ذمٌّ بليغ، وتنبيهٌ على أنَّ رجوعَهم عن دعاء غيره إليه تعالى لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدَّة القحط ونحوه، فهم قبل قليلٍ كانوا داعين مَضْرورين، والآن أصبحوا مرحومين مشركين، وهذا أمرٌ يُثير العجبَ والدَّهش والاستغراب.

أسرارُ النُّفوسِ كمائنُ خفيَّةٌ لا تُعرفُ إلّا بالمواقفِ الجَليَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 42، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿فَرِيقٌ﴾:

الإيماءُ إلى افتراقِ طائفةٍ عنِ الحقِّ وثبات الأخرى

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة (الفريق)، في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ دون مرادفاتها، والفريق أكثر من الفِرْقَةِ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط ومعشر؛ لبيانِ أنَّ هذا الفريق قدِ افترق عنِ الحقِّ وطريقِ الفطرة، ولتَخْصيصِ هذا الفِعلِ ببعضِهم؛ لِما أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك، فقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، يُشعر بأنَّ فريقًا آخر منهم ليسوا كذلك، وهم الموحِّدون[1]، فهو إنصافٌ وتشريف لفريق آخر منَ النّاس، من صفاتهم أنَّهم يذكرون اللّه تعالى في كُلِّ الأحوال، ويصبرون عند البلاء، ويشكرون عند الرَّخاء[2].

غرضُ تقديم متعلّق الفعل عليه:

كفرانُ المحسَنِ إليه يزدادُ قُبحًا ويستحقُّ قَدْحًا

جاء التَّعبيرُ بتقديمِ متعلّق الفعل على الفعلِ نفسِه، في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، فلم يقل: (يُشركون بربِّهم)، وذلك لأنَّ فظاعةَ ما قاموا به هو كونهم أشركوا بربِّهم ﷻ الذي أحسن إليهم بالخَلقِ والرِّعايةِ والتَّربية، فالتَّقديم لمزيد التَّبكيت والتَّقريع لما قاموا به مِنَ الإشراك بعد الإحسان.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تَجدُّدُ الشِّركِ دليلُ ثبات الكفرِ وبقاءِ الجُحْد

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الشِّرك ﴿يُشْرِكُونَ﴾، دون الكفر أو الجحود؛ لبيانِ سُوءِ صنيعهم في ترك عبادة المتفرِّد بالإحسانِ والعطاء، ورفعِ الضُّرِّ بعد مسِّهم، إلى عبادةِ من لا يقوى على دفعِ الضُّرِّ عن نفسِه، ففيه تعريضٌ بأنَّهم تركوا عبادةَ واجب الوجود، إلى عبادةِ فاقد الوجود، وجاء بصيغة المضارع؛ لبيانِ أنَّهم يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران، ويُقابلون إحسانَه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 61، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 42، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 143.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.

بالنِّسيان، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء، ولا في مودَّتهم صفاء[1]، فالمُضارع دليلُ تَجدُّدِ شركِهم واستمرارِه آنًا بعد آن، وفي ذِكر شِركهم تصويرٌ لحالهم، حين يُرفع عنهم البلاء، وتتداركهم رحمةُ الله تعالى، فهم لا يكادون يخرجون من يد الهلاك، حتَّى يُسارعوا إلى النِّسيان.

نوعُ اللّامِ ودلالاتُها الحقيقيَّة والمجازيَّة:

تحتملُ اللّامُ أن تكون للتَّعليل والعاقبة والأمر

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ تحتمل أن تكون للتَّعليل، وعليه فهي مُستعارةٌ لمعنى التَّسبُّب الذي حقُّه أن يُفاد بالفاء؛ لأنَّهم لمّا أشركوا؛ لم يُريدوا بشركهم أن يجعلوه عِلَّةً للكفر بالنِّعمة، ولكنَّهم أشركوا محبَّةً للشِّركِ، فكان الشِّركُ مُفضيًا إلى كفرهم نعمةَ الله؛ خشيةَ الإفضاء والتَّسبُّب بالعِلَّة الغائيَّة، على نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8][2]، وتحتمل أن تكون للعاقِبة، أي: ليَؤولَ أمرُهم إلى الكفر بنعمة الله، وجحودِ فضله وإحسانه[3]، وتحتمل أن تكون لامَ الأمر، ويُقصد بها وعيدُ المُشركين الذين كانوا يواجهون الرَّسولَ ﷺ والإسلامَ وتهديدُهم، وهو مُناسب لقوله سُبحانه: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، أي: افعلوا ما شئتُم، فسوفَ تحيق بكم عاقبةُ تمتُّعِكُم ووباله[4]، وسوف تعلمون - أيُّها المُشركون - عاقبةَ تمتُّعِكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني[5].

فإن قيل: كيف جاز أن يأمر اللهُ بالكفر وبأن يفعل العصاةُ ما شاؤوا، وهو ناهٍ عن ذلك ومتوعِّدٌ عليه؟ فالجواب: أنَّه مجاز عنِ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 117.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 207، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 392، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 61.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 392، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 521، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 504.

(5) المنصوريّ، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 207، وقاسم، عقد الجمان، ص: 864.

الخُذلان والتَّخلية، وأنَّ ذلك الأمر متسخِّطٌ إلى غاية، ومِثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنَّ ذلك الأمر خطأٌ، وأنَّه يُؤدّي إلى ضرر عظيم، فتُبالِغُ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم ترَ منه إلّا الإباءَ والتَّصميم؛ غَضِبْتَ، وقُلتَ: أنتَ وشأنُكَ، وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر، كيف والآمرُ بالشَّيء مريدٌ له، وأنتَ شديد الكراهة متحسِّر، ولكنَّك كأنَّك تقول له: فإذْ قد أبيتَ قبولَ النَّصيحة؛ فأنت أهلٌ ليُقال لك: افعل ما شئت؛ ليتبَيَّن لك - إذا فعلتَ - صِحَّةُ رأي النّاصح، وفسادُ رأيك[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ مادَّة وصيغةً:

الكفر في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ يُرادُ به كُفرانُ النِّعمة بقرينة قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾، أي: أعطيناهم من نعمة الخلاص والعافية، فإنَّ الإيتاء بمعنى الإنعام، بقرينة تفريعه على ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، فالعِلَّة مُغايرة للمعلول، وكفرانُ النِّعمةِ مُسبَّبٌ عنِ الإشراك؛ لأنَّهم لما بادروا إلى شؤون الإشراك، فقد أخذوا يكفرون النِّعمة[2]، وأتى بمفردة الكفرِ؛ لبيانِ أنَّ هذا الكفران قرينُ الكفر، وأنَّه ما كان إلّا وله به صلة، كما أنَّ صيغة المُضارعة تقتضي تجدُّدَ الكفر منهم واستمرارَه، بعد تجدُّد الإنعام عليهم بعد زوالِ كُلِّ ضرٍّ مسَّهم.

كُفران النِّعم قرينُ الكُفرِ فهو مسيسُ الصِّلةِ به

براعةُ استعمالِ الباءِ في الدّلالةِ الإيمائيَّة:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ للسَّببيَّة، أي: بسبب ما آتاهمُ اللّهُ تعالى منَ الرَّحمة والإنقاذ منَ الشِّدَّة، فصار ذلك سببًا لأشَرهم وبَطَرِهم وكُفرهم، كما هي عادةُ الإنسانِ إلّا مَن عصَمَهُ اللّهُ ﷻ، وعليه فالآيةُ بلغت مبلغًا عظيمًا في التَّوبيخ، أي: بدل أن يشكروا بسبب ما آتاهمُ اللّهُ من رفعِ الضُّرِّ، قابلوا الإحسانَ

مقابلةُ الإحسان بالإساءةِ مسلكُ أهلِ المساءة

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 464.

(2) الهواريّ، تفسير كتاب الله العزيز: 3/ 286، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 280.

بالإساءةِ، فكفروا، فأتى بالضِّدِّ ممّا يجب أن يكونوا عليه؛ لتوبيخهم وتبكيتهم وتقريعهم.

نُكْتَةُ استعمالِ أداة (ما) الموصوليَّة:

كفرانُ أهلِ الخسران يَعمُّ جميعَ النِّعم الظّاهرة والباطنة

استعمل النَّظمُ الكريم الاسمَ الموصول (ما)، في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾، للدَّلالة على العموم، أي: ليكفروا بجميعِ الذي أعطيناهم منَ النِّعم العِظام، والفواضلِ الجِسام، فلم يشكروا، وما ذلك إلّا من خُبث طينتهم، وتركُّب جهلِهم المَركوز في جِبلَّتهم[1].

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾:

الدَّلالةُ على سهولةِ وصول النِّعَمِ وتحقُّقها

الإيتاءُ: إعطاءُ النّافع، فمعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾: أنعمنا عليهم مِنَ النِّعَم، التي هي نعمة الرِّزق وكشفِ الضُّر[2]، وجاء استعمال الإيتاء للدِّلالة على سهولةِ وصول النِّعَم وتحقُّقها.

فائدةُ إسنادِ فعلِ الإيتاءِ إلى ضمير العظَمةِ:

التَّعريضُ بأنَّ مُنزِّلَ النِّعم هو القادرُ على إنزالِ النِّقَم

أُسند فعلُ الإيتاءِ إلى ضمير العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ لبيانِ أنَّ إيتاءَ النِّعَم كان مِنَ العظيم سبحانه، وهي التي لا يقدر عليها سواه، ففيه تعريضٌ بأنَّ مَن آتاهم تلك النِّعمَ، هو القادر دونَ سواه على سلبِها وإنزالِ النِّقَم.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

تفريعُ الإنذارِ والتَّوبيخ عن الكلام السّابق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ للتَّفريع، جيء بها؛ لأنَّ الإنذار والتَّوبيخ مُفرَّعان عنِ الكلام السّابق[3]، أو الفصيحة، والتَّقدير: إن فهمتُم مقصِدَ الكلامِ؛ فتمتَّعوا، فسوف تعلمون.

غرضُ استعمالِ لفظ التَّمتُّع مادَّةً وصيغةً:

تهديدُ الجاحدين مع التَّهكُّم والتَّقريع

استُعمِل لفظُ التَّمتُّعِ، في قولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، ومعناه: الانتفاعُ بالملائم وبالنِّعمة مُدَّةً تنقضي[1]، والأمر فيه للكُفّار بأن يتمتَّعوا بدُنياهم قليلًا، أو بعبادتهم الأوثان، أو باتِّباعهمُ الأهواءَ، فإنَّها من قبيل الشَّهوات التي يُتمتَّع بها، وفي التَّهديد بصيغة الأمر إيذانٌ بأن المُهَدَّد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المُهَدَّد به[2]، فالأمر في (تمتَّعوا) مُستعملٌ في التَّهديد والتَّوبيخ[3]، وهو خطابُ تهديد على سبيل التَّهكُّم والتَّقريع.

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيّ:

آيـاتُ النَّحلِ والـرُّوم للمخاطَبين وآية العنكبوت للغائبين

جاء قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ في سورة النَّحل في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النّحل: 53 - 55]، وفي سورة الرّوم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بينما في سورة العنكبوت جاء بلفظ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ [العنكبوت: 66]، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: 65 - 66]، ولسائلٍ أن يسأل عن اختصاص آيةِ العنكبوت بما خُصَّت به، ومجيء الآيتين الأُخْرَيين بلفظ الأمر على معنى التَّهديد، وهو ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؟ والجواب: أنَّ الآية الأولى افتُتحت بخطاب الشّاهد، فأجرى قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على هذا اللَّفظ، وآيةُ العنكبوت افتُتحت بالإخبار عن الغائب، وهو قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: 65] ومَرَّ سائر الأفعال في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 281.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

هذه الآية على ذلك، ولم يكن لها نظيرٌ في لفظها تُرَدُّ إليه، فأجرى قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ [العنكبوت: 66] عليه.

والآية في سورة الرُّوم، وإنِ افتُتِحت بلفظ الإخبار عن الغائب - في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ - فإنَّ لها في لفظها نظيرةً رُدَّت إليها، وصارت كالفرع عليها، وهي قوله تعالى: ﴿*وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزُّمر: 8]، فهذه الآية مُفتتحة بمثل ما افتُتِحت به تلك، إلّا أنَّ هذه الآيةَ لواحد من النّاس، وتلك للجمع، فصارت كالفرع على الأولى، فكان حَمْلُها في هذه اللَّفظة عليها أولى[1].

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيبة إلى الخطاب:

مباغتةُ الخطابِ أشدُّ في بعضِ النُّفوس من خطابِ الإخبار بالغيبةِ

التفتَ النَّظمُ الكريم منَ الغيبةِ إلى الخِطاب في قولِه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ بقصد التَّوبيخ والإنذار والمُبالغة في زجرهم[2]، فلمّا أخبر عن نتيجة شركهم بتحقيق الكُفران؛ التفت إليهم ليفْجَأهم بالخطاب، آمرًا لهم بالتَّمتُّع بكُفرانِ الإحسان، حيثُ يواجَه هؤلاء المُشركون بهذا الوعيد من ربِّهم، فلْيَتمتَّعوا بما هم فيه، وسوف يعلمون ما يَجُرُّه عليهم كفرُهم وشركُهم من بلاءٍ شديد، وعذابٍ أليم[3]، فلمّا كان فعلُهم هذا سببًا لغايةِ الغضب، دلَّ عليه بتهديده مُلتفتًا إلى المُخاطَبة[4].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تفريعٌ للإنذارِ على

(1) الإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل: 1/ 840 - 841، والكرمانيّ، البُرهان في توجيه مُتشابه القرآن، ص: 160، وابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 2/ 298.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 504.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 521.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 93.

التَّوبيخ[1]، أو فصيحةٌ واقعةٌ في جوابِ شَرْطٍ مُقدَّرٍ، بمعنى: إن تتمتَّعوا؛ فسوف تعلمون[2].

غرضُ استعمالِ أداةِ التَّسويف للبعيدِ:

عـــذاب الـلـه بالظّالمين آتٍ لا محالة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ التَّسويف للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ دون السّين، فلم يقل: (فستعلمون)؛ وذلك أنَّهم استبعدوا مجيءَ العذابِ قريبًا، فعاملهم على ظنِّهم تنزُّلًا معهم، وإمهالًا لهم بمزيدِ عذابٍ مُتراخٍ عنهم، أي: سيأتي عليهم زمانٌ يعترف كلٌّ منهم بجميع ما جرى عليه مِنَ الكُفران والعصيان، وقتَ رؤيتِهم أحوالَ الكافرين وأهوالَهم في النّار[3]، فهو إنذارٌ بأنَّهم سيعلمون في المستقبل شيئًا عظيمًا[4]، وقال بعضهم: واللّهِ، لو توعَّدَني حارسُ دربٍ؛ لخِفت منه، فكيف والمُتوعَّد هاهنا هو الذي يقول للشَّيء: كن فيكون[5]؟!.

بلاغةُ الكنايةِ ودقَّة الإيماء:

مَـن حـادَ عن حقيقةِ العِلْمِ تأدَّبًا؛ لَحِقَتْهُ حقيقةُ العِلْمِ تأديبًا

لمّا كان المشركون الجاحدون عالمين بحقيقةِ المُنعِم ﷻ، الذي يُخرجهم من هول المصائب، وعملوا بمقتضى ذلك جهلًا وخُسْرًا؛ عاملهم بواقع أعمالهم المآليَّة، فأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سُوءَ تدبيركم عند تدميركم، فهذا تهديد بعد تهديد، ووعيدٌ بعد وعيد، والعِلْم كنايةٌ عن حصول الأمر الذي يُعلم، أي: عن حلول مصائب بهم، لا يعلمون كُنهها الآن، وهو إيماءٌ إلى عظمتها، وأنَّها غيرُ مترقبةٍ لهم، وهذا إشارةٌ إلى ما سيُصابون به[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 111.
(3) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلَهيَّة: 2/ 122.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(5) المَغراويّ، التَّدبُّر والبيان: 26/ 234.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 280.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجماعة والطّائفة والفريق:

الطّائفة يُلْحظ فيها الانتقالُ والجماعةُ الاجتماعُ على سببٍ ما والفريق الافتراقُ عن جهةٍ ما

الطّائفة في الأصل: الجماعةُ التي من شأنها الطَّوْفُ في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلُها الجماعةَ التي تستوي بها حلقةٌ يُطاف عليها، ثُمَّ كثُر ذلك حتى سُمّيت كلُّ جماعة طائفة، ويجوز قبولُ الواحد، بدلالة قولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التّوبة: 122]، والجَماعَة أقلُّها ثَلاثَةٌ، وأمّا الطّائِفَةُ؛ فقيل: إنَّها تُطلَق على الواحد فأكثر[1]، فالطّائفةُ هي الجماعة القليلة[2]، فأُوجِب العملُ في خبر الطّائفة، وقد تكون الطّائفة واحدًا[3]، ففي الطّائفة معنى القِلَّة مُقارنةً بالجماعة، أمّا الفِرقة؛ فهي الجماعة الكثيرة، والفَريقُ أكثر مِنْها[4].

فالجماعةُ والطّائفة والفِرقة بينهما تقاربٌ دلاليٌّ؛ حيثُ تشترك الألفاظُ في الدِّلالة على العدد، والفارق بين الكلمات هو كثرةُ العدد في الفريق، وقلَّتُه في الطّائفة والجماعة، والقرآن الحكيم لم يُهدِر هذا الملمحَ الدِّلاليَّ المُميَّز في استعمال الكلمات[5]، مع وجود فرقٍ آخر، وهو أنَّ الطائفة ما يسهل تنقُّلُها، والجماعةُ ما يجمعها سببٌ ما، والفريقُ ما يُلحظ فيها الافتراق عن شقٍّ مخالفٍ له.

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ أقْوى مِنَ الإعْطاءِ وفيه معنى الالتزام

لا يكاد أهلُ اللُّغةِ يفرِّقون بينَ الإيتاء والإعطاء، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعضَ الفروق الدَّقيقة التي تُوحي ببعض الفروق، وهي فروقٌ أغلبيَّة لا كليَّة، فالإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له فعلٌ مطاوعٌ، تقول: أعطاني، فعَطوتُ، ولا

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 685.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 210.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 278.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (فرق)، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 323.
(5) محمَّد داود، الفروق الدَّلالية، ص: 333.

يُقال في الإيتاء: آتاني، فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني، فأخذتُ، والفعل الذي له فعلٌ مطاوِع أضعفُ في إثبات مفعولِه من الذي لا مطاوعَ له، فالإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعْطاه إلّا مَن له قوَّة، وكذا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحكمةُ شيءٌ عظيم أيضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] لعِظَم القرآن وشأنه[1].

ومنَ الفروق أيضًا: أنَّ الإيتاء فيه معنى الوجوب والالتزام، أمّا الإعطاء؛ ففيه معنى التَّفضُّل والإكرام، فمثلًا: بعد أن أسعد اللّهُ المؤمنين بدخول الجنَّة، قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: 36].

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ العطاء يكون في الأشياء المادّيَّة، ويُفيد التَّكرار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1] أي: سيتكرَّر شُربَكَ - يا محمَّد - كثيرًا من نهر الكوثر، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]، أي: سيكون عطاءُ اللّه لك مكرَّرًا حتَّى تبلغَ درجة الرِّضا[2]، أمّا الإيتاءُ؛ ففي الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، قال سُبحانه: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 20][3].

ومن الفروق أيضًا: أنَّ الإعطاء دليلُ التَّملُّك دونَ الإيتاء[4]، فالإيتاءُ يشمله النَّزع، بمعنى: أنَّه ليس تمليكًا، ولكنَّ العطاء تمليك، والإيتاء ليس بالضَّرورة تمليكًا؛ لأنَّ الإعطاء هو إيصالُ الشَّيء إلى الآخذ له، وكَثُرَ استعمال الإعطاء حتَّى صار لا يُطلَق إلّا على التَّمليك، فيُقال: أعطاه مالًا؛ إذا ملَّكَهُ إيّاه.

(1) السُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367 - 368، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 367.
(3) صلاح لاشين، من أسرار التَّعبير في القرآن الكريم، ص: 71 - 77.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات: 1/ 360.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»